القصيدة العربية والشعراء

زهير كاظم عبود

يغبن التاريخ العربي والذاكرة العربية العديد من أسماء الشعراء الذي لم يذكر شعرهم أحد من الرواة ، أو أن يتم ذكر شعرهم دون معرفة أسمائهم ، حيث أن المنقول من الشعر العربي في الزمن الجاهلي كان يتم من خلال الحفظ والنقل ، ولم يتم تدوينه ألا في العصور المتأخرة بعد الحكم الإسلامي . والحفظ والنقل يعتمد على الذهن والقدرة العقلية للأنسان حيث تضعف كلما ضعف الأنسان والذي يعتريه النسيان في أغلب الأحيان تبعاً لمقدرته ومراحل عمره وصحته ومرضه مما تضيع مع هذا الكثير من القصائد والأشعار والأسماء .والمتمعن في الحداء البدوي عند العرب ، ومنه الأناشيد والأشعار التي كان يتغنى بها البدو عند سيرهم مع ركبان الجمال في الصحراء أو في المناسبات التي يحتفلون بها ، مما يؤكد لدينا أن لابد لهذا الحداء من قائل أوشاعر قاله فبقي الحداء أو الشعر وطمر النسيان أسم الشاعر ، ثم تطور هذا الحداء الى النشيد الجماعي الذي يردده العديد من الرجال وربما النساء أثناء عمليات الرقص الجماعي أو المناسبات الخاصة ، وبعد هذا تطور الأمر الى الأهزوجة التي يشترك بها الشاعر نفسه ومن ثم تتحول الى الجماعة ، وبما وصل الى هذا الزمن بالهوسات الشعبية حيث يتفرد الشاعر بإلقاء أبيات من قصيدة له ثم يردد المجتمعون بمصاحبة الرقص ما قاله ضمن الشطر الأخير من الأبيات الشعرية وفي الكثير من هذه الأشعار لاتعرف الناس أسم الشاعر. كما ورد أن العرب كانت تستمع الى الأغاني في جلسات السمر والفرح ، وبالتأكيد تعتمد المغنية أو المغني على الأشعار الغنائية والقصيدة المغناة والتي لم تصلنا منها أسماء قائليها أو ناظميها من الشعراء ولم يصلنا منها الا الجزء اليسير ، كما أن الكثير من هذه القصائد ما تمجد الآلهة والأصنام والأنصاب والأديان البائدة وتمجد الطقوس والطرق التي تمارس بها الناس علاقتها بأديانها وتدعو الى قيم متناقضة مع ما جاء به الأسلام مثل شعر الخمر والمجون ووصف إباحي وخليع أضافة الى أشعار الكفر وتمجيد آلهة قريش ، وقد حرمها الإسلام ونهى عنها وعن استذكارها ، المتابع سيجد ضرباً من ضروب الشعر العربي الذي لن تستطيع الدلالة على قائله أو الزمن والمناسبة التي قيلت فيه ، لكنه أصبح يتردد على لسان البدو عند الحداء في السقي أو في الرعي أو عند الغزو والكر وحين يستشهد العربي في مناسبة معينة بأبيات شعرية يحفظها ولن تكون هذه الأبيات حصراً على قبيلة معينة وأنما تصبح مشاعاً لمن أراد له استعمالها وقولها غير أن العديد ينسبونها لشعراء من

قومهم أو قبيلتهم تفاخراً واعتزازا وينفي ذلك غيرهم .وقد سطع نجم الشعر والشعراء في العصر الجاهلي حتى أخذوا بلب الناس وسيطروا على جلساتهم ودخلوا تفاصيل حياتهم وأثروا في هذه الحياة ، حتى عد الشعر والخطابة ضرباً مهماً من ضروب الحياة ولغة مشتركة تتفاهم بها القبائل والأمم الناطقة بالضاد .

وليس اعتباطا أن يتم ذكر الشعراء في القرآن الكريم فقد سميت سورة من سور القرآن بسورة الشعراء ، كما أن الآية ٢٢٤ وما بعدها من هذه السورة ذكرت الشعراء بوصف خاص ، بالنظر لانتشار الشعر في الجزيرة العربية ودخوله في مفاصل الحياة العامة بما فيها الديانات القديمة والطقوس والعبادات التي تمارسها العرب وعاداتها وتقاليدها وقيمها ، وتبوأ الشاعر المكانة المتميزة في القبيلة بما يجعل مهمته ضرورية و كبيرة في ذم الأعداء وتقبيحهم ورفع شأن القبيلة والمفاخرة بها وبرجالها ، والمفاخرة بالأنساب وبالانتصارات في القتال والمفاخرة بالكرم والمواقف المشرفة إضافة الى التباري مع شعراء القبائل الأخرى ، بحيث لا تستغني أي قبيلة عن شاعرها المميز والذي يعتبر جزءاً من قيادة القبيلة ومكانتها المتميزة بين الأعراب والتفاخر بتسجيل القصيدة العربية وترديدها بين الناس وانتشارها وما تتضمنه من حكم ومواعظ وذم وهجاء ومدح وغزل ووصف ، حيث ورد في الآية ٢٢٤ وما بعدها من سورة الشعراء(والشعراء يتبعهم الغاوون ❖ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ❖ وأنهم يقولون مالا يفعلون ❖ الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وأنتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) .ومن خلال هذا نجد أن للشعراء تأثيراً أخاذاً في النفس البشرية ، كما كانت الناس تعترف بقدرة الشاعر وموهبته الفذة في النظم وفق الأصول وكذلك أن يتضمن شعره الحكمة والرفعة في القول يبز به أقرانه من الشعراء .ويروى أن الشاعر العباس بن مرداس الذي شهد مع الرسول (ص) معركة حنين فأعطاه النبي أعطية أراد أكثر منها فقال له:

أتجعل نهبي ونهب العبيد
بين عيينة والأقرع وكانت
نهابا تلافيتها بكري
على المهر في الأجرع

فقال الرسول : أقطعوا عنا لسانه !! ويقصد شعره أذ لو كان في زماننا هذا لقطعوا عنه لسانه فعلاً أن لم يقطعوا عنه هواء الحياة .ويسجل التاريخ عن المساجلات والمديح والمطارحات الشعرية والردود والتفاخر والذم والقدرة على الحفظ ما يجعل الفكر يتلفت نحو هذه الأمة المتلئة بالعطاء والتي يضيع فيها الكثير في زحام الزمن وموت الحفاظ والنسيان الذي يعتري النفوس بفعل عامل الزمن والحروب ومعارك الناس وقتال القبائل وتحت وطأة سياسة السلطات ورغبات السلطان في كل زمان .وكان للشعر ولم يزل تأثير في نفوس الناس وخاصة أذا كان الشاعر مقتدر في إلقاء شعره وله تأثير صوتي وقدرة على ترجمة معاني الشعر عند إيصالها الى المستمع ويتمتع بقدره جسمانية تؤهله وتساعده على جذب المستمع الى صوته وإلقائه القصيدة .ويمكن أن تعتبر المعلقات الشعرية في الكعبة من القصائد التي يتفاخر بها الشعراء ومن القصائد المتميزة بين الأشعار العربية في تلك الفترة أضافة الى ما يقوله الشعراء في تجمع الشعراء بسوق عكاظ وما يستمع له الناس من أشعار يقولها الشعراء كل عام .

وسميت المعلقات السبع وقيل غير ذلك عدداً إذ سميت بالمعلقات العشر ، كما سميت بالقصائد المذهبات والمعلقات والقصائد الطوال وكتبت بماء الذهب وعلقت على جدران الكعبة وفي ذلك خلاف فمنهم من ينكر هذه القصة ويعتبرها غير حقيقية وقسم آخر يراها مؤكدة وصحيحة ، وهناك من يزعم أن العرب كانت قبل الإسلام تسجد لهذه القصائد المذهبة وبقيت على هذا الحال حتى جاء الإسلام وأزالها من مكانها وحرم السجود لغير الله ، كما أن هناك من ينكر كون هذه القصائد تعود الى الشعراء التي سميت بأسمائهم وأنها منحولة وموضوعة من قبل الغير لكن الأكثرية من الكتاب والرواة من يراها صحيحة وموثقة ، ومن شعراء المعلقات طرفة بن العبد ولبيد بن ربيعة والنابغة الذبياني وأمرؤ القيس وزهير بن ابي سلمى والأعشى وعنترة بن شداد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة اليشكري .، وهناك من يزيد على هذه الأسماء أسم عبيد بن الأبرص وقد أتهم الشعراء بممارسة السحر أذ أن لكلامهم سحراً وتأثيراً في النفوس أسوة بما يتاثر به الناس في أعمال السحرة ، مثلما فيهم أهل العلم والحكمة والبلاغة والفروسية والفراسة التي يعجز الآخرون عن أن يبلغوها ، وكان العرب وما زالوا يعتزون بشعرائهم ويكرمونهم باستثناء زماننا الهجين هذا حين أراد الحكام توظيف القدرة الشعرية الكامنة في موهبة الشاعر لصالح سلطتهم فأنقاد البعض وهبطوا من أبراجهم وقالوا كلاماً يشبه الشعر لأنه ينطلق من أفواههم لامن أرواحهم وأعماق قلوبهم .

ويقول الدكتور جواد علي في كتابه العرب قبل الإسلام في الجزء التاسع منه (أذا قرأت بعض الكتب مثل (الاشتقاق) و (المحبر) و (كتب المجالس والأمالي والشواهد) تجد أمامك أسماء عدد كثير من الشعراء الجاهليين ، لم يرد أسمهم في كتب الشعر الجاهلي) .وقد تسمع العديد من الأبيات الشعرية التي لم يزل الناس يحفظونها دون أن تعرف قائلها أو ناظمها الحقيقي ودون أن يعرف من يستشهد بها أيضاً ، فالحفظ في القلوب يتعرض للنسيان والاشتباه والأهواء والمزاج ، وكما أن عدم تدوين هذه القصائد والأشعار وتوثيق شعرائها في العصر الجاهلي وعصر الإسلام الأول ساهم مساهمة فعلية في ضياع الكثير من هذه .

والشاعر من ينظم الشعر وهو غلب على منظوم القول ، لشرفه بالوزن والقافية (القاموس المحيط للفيروزآبادي الصفحة ٥٣٣) .وفي لسان العرب ان الشعر هو الكلام المقفى الموزون قصداً ، و أن الشاعر سمي شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره (الجزء الثالث ص٣٠١) ، ولا تشترط في الشاعر ميزة خاصة ولاتعليم خاص ، غير أنه يشترط أن يكون ملما باللغة العربية وعلومها ويتمتع بلغة فصيحة وقدرة على فهم المعاني والمفردات البلاغية وقواعد الشعر المعروفة من ناحية الوزن والقافية والالتزام بالبحور الشعرية وبالعروض التي هي ميزان الشعر وتدخل في تفصيل العروض البحور الشعرية والأوزان وسميت بالعروض لأن الشعر يعرض عليها فأن وافقها كان صحيحاً وأن خالفها عد ضعيفاً وقد أنتابه الخلل ، وخارج هذه البحور والانضباط في الشعر يصير الكلام رجزاً أو نثراً مركزاً أن كان بلا قافية .

وقد ظهرت الدعوات القائلة بعدم اللزوم بالتزام القصيدة الشعرية بالعروض لأنه يعد تكلفاً والتزاما ليس له ما يبرره وأن قواعده شديدة تخل بقدرة الشاعر على التعبير ونقل الصورة الشعرية الى أذن المستمع المتلقي ، ولهذا ظهر الى الساحة نوعان من القصائد وخاصة في الزمن القريب أذ برزت بشكل واضح وكبير قصيدة الشعر الحر أو ماسمي بالقصيدة الحديثة وهي تجربة شعرية يتخلص فيها الشاعر من العروض ومن القافية في الوزن الشعري . وأندفع البعض تحت مظلة الحداثة الى كتابة أسطر من النثر أوهموا انفسهم أنها شعر ، ثم فرضوها علينا على أساس أنها الشعر الحديث .ومن الغريب في هذا الزمن أن النقاد لم يتصدوا لهذه الموجه التي عمت البلاد وأختلط الحابل بالنابل ، حتى أن الشعراء من كتاب القصيدة الحديثة لا يجدون لهم متسعاً من المكان في ظل تزاحم غير عادل وغير منطقي بين الشاعر وبين من يريد أن يصير شاعراً .

أن القصيدة الحديثة في الشعر الحديث إضافة الى احتوائها على الصورة الشعرية والتجانس الموسيقي في الكلمات والأبيات الشعرية فانها تلتزم بالكثير من سمات القصيدة والشعر العربي ، وإلا فانها تصير نثراً مركزاً حيث أن الأبداع ليس جملاً تتداخل في القصيدة وليست تمازجاً وإيقاعاً موسيقياً مفرداً فقط وليست كلمات منمقة ومرصوفة، بل أنها تمازج وانصهار بين كل تلك الأمور إضافة الى إيقاعها اللغوي لدى المتلقي وحيث يتمتع معها الشعر الحر بحرية أكثر أتساعاً من مساحة الشاعر في القصيدة العمودية والكلاسيكية .

وثمة سمة مشتركة بين قصيدة التفعيلة وقصيدة الشعر الحديث بشكلها العام ، فكلاهما يحتوي على موسيقى وشاعرية وأنضباط يشكل فاصلاً لكل منهما .والشعر الغربي القديم لم يتقيد بالقافية ولا بالضوابط الشعرية التي

أعتمدها الشعر العربي ، لكنه التزم بالوزن الشعري للقصيدة .غير إن الضوابط الحديدية للشعر لم تخرق ألا من القليل من الشعراء على أن لا نختلف في تأثير الإيقاع اللفظي في القصيدة الكلاسيكية وتأثير التجانس في الألفاظ والقافية التي تتقيد بها لدى السامع والقارئ مما يسهل بشكل أكيد على عملية الحفظ والترديد ، في حين أن هناك مشاكل وعوائق تمنع ذلك في القصيدة الحديثة ، ويمكن حفظها ولكن ليس بسهولة القصيدة الحديثة التي ترسخ في

الذهن بيسر و لزمن طويل ، وكمثال على ذلك مارسخ في أذهاننا من قصائد قديمة للشعراء العرب في الجاهلية وفي صدر الأسلام وظهره وفي العصرين العباسي والأموي وفي الفترة المظلمة ومن ثم في الفترات القريبة من التاريخ .

وليس ذلك فقط وأنما ما نردده من أشعار لتغطية حدث ما أو حالة أو واقعة أو لتطبيق البيت الشعري على تصرف معين جميل أو مستهجن حزين أو مفرح فأننا نلوذ بأبيات الشعر الكلاسيكية على الأكثر ، كما أن الميل الغريزي للحفظ يميل الى سهولة الانسياب في اللفظ وسهولة الألقاء في القصيدة المقفاة أكثر منها في القصيدة غير الملتزمة أو الحديثة ، مع أننا كما أسلفنا لا ننكر كون القصيد تين تحتويان على الصورة الشعرية وعلى النغم الموسيقي المطلوب في القصيدة وربما على الالتزام بالكثير من ضوابط القصيدة بشكل عام .أنت تحفظ الكثير من أشعار محمد مهدي الجواهري أو شوقي أو البردوني أو الشابي أو الخليلي أو غيرهم من شعراء القصيدة الكلاسيكية وتتغنى بها وتسترسل في الاستشهاد بها وبأشعار المتنبي على سبيل المثال لا الحصر لكنك لن تفعل ذلك في القصيدة الحديثة وربما أن فعلت فبشكل متفرد وقليل لا يشمل الجميع ولاتتسع مساحته مثل الأولى .

ولاينكر أن لطريقة إلقاء الشعر وقراءته من قبل الشاعر أو الملقي للقصيدة تأثيراً على النفوس وأثراً مهماً في تقبل سماع القصيدة من قبل المستمع ، ولكل شاعر طريقة معينة في الإلقاء وقابلية تتناسب مع صوته وحنجرته وحركاته المصاحبة لألقاء الشعر .وعن طريقة نظم الشعر تتحدث الكتب عن طرق وطقوس تتلبس و تصاحب لحظة نظم القصيدة لدى الشاعر عند قيامه بنظم الشعر ، ومن الطريف أن الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري كان أذا أنتابته حالة نظم الشعر يقوم بنظم الأبيات على طريقة حداء البدو فيصرخ بها حادياً ولعل جيرانه كثيراً ما سمعوه دون أن يعرفوا أنه في حالة النشوة التي ينظم فيها شعراً ، أذ أنه يتغنى بقصيدته وأشعاره قبل أن يكتبها على الورق ، فأذا دخلت مزاجه وقناعته كتبها والا فأنه يهملها ويحدو الى غيرها .

وكان قسم من الشعراء العرب يقومون بنظم وألقاء قصائدهم فوق ظهور الجمال ، أو أنهم يقفون فوق مرتفع ، أو يمسكون بسيوفهم مغروزة في الرمال يتكئون عليها ، في حين يتمكن البعض من نظم الشعر في حالة الخلوة لوحده والاعتزال عن الدنيا كلها ، ويأتي ملكوت الشعر الى البعض في حالة الانتشاء من جمال المنظر أو المكان الذي حرك مشاعره وهز أحاسيسه ، مثلما يتمكن البعض من النظم قعوداً يقف البعض حين يأتي ملكوت الشعر له .وكثيراً ما تختلط الأفكار والأبيات لأن الشاعر أنسان ويحفظ الكثير من الشعر لغيره من الشعراء القدامى أو المحدثين ، وحين يقوم بنظم القصيدة يحدث التناص أو تشابه الأفكار أن لم يحدث أختلاط في الأبيات أو الأشطر الشعرية بشكل غير مقصود ، كما يمكن أن تتداخل الصور الشعرية أو تتعارض ، ومن الشعراء من لا يحفظ أشعاره قطعاً ويطلب من الغير أن يحفظها ويقرأها له وللناس ، مثلما يوجد قسم من الشعراء لا يجيدون قراءة القصيدة ولا يحسنون الألقاء بين الناس .وقد أعتمد بعض خطباء العرب في العصور القديمة و كذلك اعتمد كهانهم على السجع عند الكلام وألقاء الخطاب لما في ذلك السجع من تأثير في النفوس ، ويعد السجع نوعاً من أنواع الشعر ويتميز بقدرة التجانس والموازنة في الكلام والمطابقة بين الأجزاء .وكان الناس في العصر الجاهلي يعتبرون أن الشاعر يستلهم شعره من الشيطان الذي يتلبسه ، وأن لحظة نظم القصيدة الشعرية كانت لحظة التلبس والوحي الذي ينزله الشيطان في روح الشاعر، وأشيع أن شيطان الشاعر هو الذي يوحي للشاعر بالقصيدة ،

وزعم العديد من الشعراء أنهم ألتقوا بشياطينهم الذين يلقنونهم شعراً مثل الأعشى وأمرئ القيس حتى حسان بن ثابت قبل أن يسلم ، ولهذا انتشرت المقولة التي تقول أن شيطان الشعر قد تلبسه كناية عن لحظة كتابة الشعر من قبل الشاعر .أن مسألة شيطان الشعر لا تعدو أكثر من كناية ورمزية للملكة الشعرية التي يتملكها الشاعر وتعبيرا عن موهبته الكلامية ، وأن قصة شيطان الشعر لا تعدو أكثر من قصص خرافية تداولها العرب مثلما كانوا يتداولون قصص (الطنطل) و (السعلاة) و (العفاريت الخرافية) والتي كانت تتحدث بها الجدات للصغار ،

حيث أن الشاعر أنسان ممتلئ بالأحاسيس والمشاعر الجياشة ويمتلئ بقدرة غير طبيعية على نظم الكلام وتقديمه بشكل جميل وعلى طبق شعري أي أنه يطبخ الكلام ويقدمه بخلطة مقبولة وشهية من قبل الجميع ، مثلما يتمتع بموهبة الالتقاط من بين الكلمات والجمل العربية حيث يتمكن من صفها بشكل جديد وأنيق وذي معنى يسلب اللب

ويهز المشاعر انفعالا وإعجابا وقدرته المتفردة هذه تجعل منه صائغاً للكلام يتميز عن غيره بهذه الموهبة .

ومع كل هذا لا نستطيع أن نحصر الشعر بتعريف محدد ، ولا نستطيع أن نقيد الشعر في موضوع معين أيضاً فقد قيل الشعر في جميع مناحي الحياة وصفات الناس ومختلف الموضوعات الواسعة ، ورغم أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي نبه الناس الى غواية الشعراء وأستثنى منهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ،

ومع أنه لم يحرم الشعر نظماً أو سماعاً ، الا أن ذلك دفع العديد من الشعراء لترك غواية الشعر بما أرتبط به من تقولات وتحميل الضمير من آثام هو في غنى عنها ، أضافة الى أنصراف القبيلة عن التفاخر والتمجيد وحصر ذلك بالدين الإسلامي والتبشير بما جاء به القرآن وتحدث به الرسول وللرد على شعراء قريش من الكفار ، فقد فترت الأندفاعات الشعرية لدى الشعراء في الإسلام وأقتصرت على قصد ترجيح كفة الإسلام والمفاخرة بالدين الجديد والاحتفال بالنصر على الأعداء ، وبتمجيد الباري والرسول الكريم ، وقد أنصرفت الناس الى التبصر في الدين الجديد والاشتغال بأمور الفقه والحديث والتفسير رغم أن الدين الإسلامي لم يحرم الشعر ولكن أنشغال الناس عنه أضعفه في تلك الفترة مع أن شعراء فحولاً أدركوا الأسلام واستمروا يقولون الشعر الجميل والخالد بحق الرسول (ص) وبحق الأسلام مثل حسان بن ثابت وقيس بن مكشوح والشاعر لبيد .و استطاع الشعر العربي أن يعيد مجده تدريجياً بعد الخلافة الراشدية أبتداء من بداية الدولة الأموية مروراً بالدولة العباسية والحكم العربي في الأندلس .

وبعد هذا الزمن الذي ارتقى فيه الشعر العربي درجات عالية في المجتمع ثم انخفض لأسباب عديدة ، وبعد أن استقر ببقاء الشعر الكلاسيكي على حاله مع بروز ظاهرة انحسار هذا النمط من الشعر بالنظر لعدم رعايته أكاديمياً من قبل المؤسسات الثقافية العربية وانشغال السلطات في القضايا والخلافات السياسية ، وقلة ولادة عناصر موهوبة تتداول هذا النمط من الشعر في غياب الشعراء الكبار الفطاحل الذين باتوا يرحلون وفق فلسفة الموت والحياة فلا يخلفون شعراء للقصيدة الكلاسيكية (محمد مهدي الجواهري ، أحمد شوقي ، مصطفى جمال الدين، البردوني والخليلي والشابي وبدوي الجبل وغيرهم) ، إضافة الى مساهمات عديدة أدت الى أضعاف هذا الجانب تتعلق بمناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وبالتطور الثقافي العالمي والتأثير الثقافي المتبادل بين الأمم وتطور التبادل الثقافي وسهولة الاتصال ، وتأثير الأمم في الثقافة العربية ، ويقول الجاحظ في كتابه البيان والتبيين (كان الشاعر من العرب يمكث في القصيدة الحول ، ويسمون تلك القصائد بالحوليات والمنقحات والمحكمات ، كما يصير قائلها فحلاً خنذيذاً وشاعراً مفلقاً) ولك أن تستنتج المدة الزمنية التي تستغرقها بعض القصائد العربية التي تأخذ حولاً كاملاً يبدل بها ويغير ويشطب ويعيد حتى تستوي قناعته على ماصارت اليه القصيدة والتي تعجبه وتملأ قناعته فيطلقها لتأخذ بلب الناس قارئين ومستمعين ، هذه القصيدة لم تعد مدة نظمها وترتيبها متناسبة مع عصر السرعة والزمن الذي يحسب وفق اعتبارات المادة ، لذلك تتوالد القصيدة الحديثة بسرعة زمنية تتناسب مع عصر السرعة ومع تغير الزمن ويصعد من خلالها شعراء أكثر من الشعراء الراحلين ينبغ من بينهم شعراء يصلون في قاما تهم الشعرية الى شعراء الكلاسيكية أن لم يبزوهم في القصيدة الحرة التي عمت الإصدارات والصحف والمجلات وصفحات الإنترنت وسيطرت عليها حتى لا تستطيع أن تحصي الشعراء ولا تستطيع أن تحفظ أو تتابع القصائد ، مثلما انتشرت طباعة دواوين الشعر الحر والنثر المركز والقصيدة الحديثة بشكل كبير وسريع .وحين تبحث بين الإصدارات الشعرية الحديثة في المكتبات لاتجد بين عشرات بل مئات الدواوين الشعرية ، ديواناً شعرياً واحداً يعتمد القصيدة القديمة أو الكلاسيكية في كتابة الشعر ، وكذلك حين تفتح الصحف والمجلات قد تجد بينها قصيدة واحدة تطغى عليها قصائد العديد من كتاب القصيدة الحديثة بكل أصنافها وفروعها وتلاوينها .

قصبة في مهب الريح

من الروائع المترجمة عن الاهوار

عرض / جبار الجويبراوي

في السبعينيات من القرن الماضي قدمت لنا دار مكتبة الحياة البيروتية كتاب (قصبة في مهب الريح)لمؤلفة كافن ماكسويل مترجمة بقلم صادق عبد الصاحب التميمي.

وهي أذ قامت بترجمةالكتاب فأنما قدمت به لوحة عن جزء من البلاد العربية كما رآه احد المراقبين الغرباء عن هذه البلاد. وبذلك تكشف عن نواح جغرافية واجتماعية في الوطن العربي قد لا يلاحظها الدارسون المواطنون بسهولة ،لألفتهم لها وتماسهم الدائم معها ولكنها لمراقب غريب يراها من الخارج ويريدها موضوع دراسة تختلف كل الاختلاف وتتباين كل التباين في مختلف الوجوه والمناحي.

فكافن ماكسويل أذ يصف لنا بلاداً نعيش فيها ويصف لنا ما نعرفه ونعانيه انما يصف من زاوية العالم المتحضر موقفاً تجاهنا. ومن خلال ما اورده في هذا الوصف نستطيع فهم هذا الموقف منا والدقائق التي يبرز خطورتها مع اهمالنا نحن لها انما هي دقائق مهمة في مجتمع الحضارة الحديثة وما تذكير الغير لنا بأوضاعنا ألا دعوة لأعادة نظرة تقييم جدية لما ألفنا وتقبلنا دون نقد وتمحيص. فمن هو المؤلف؟؟ انه كافن ماكسويل (١٩١٤ -١٩٦٩) مؤلف ورسام ورحالة وعضو في (الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية) و (الجمعية الادبية الملكية البريطانية). وقد نال جائزة (هينمان) للأدب عن كتابه (قصبة في مهب الريح) الذي يتحدث عن الأشهر القليلة التي قضاها في الاهوار في عام ١٩٥٦ برفقة ثيسكر. من كتبة الأخرى (حلقة في الماء اللامع) الذي يتحدث عن كلب الماء الذي جلبه من الاهوار الى بريطانية. كافن ماكسويل يتحدث عن لقائه الأول بثيسكر قائلا : كنت قد قرأت قبل ذلك بعامين ونصف ، في أيلول من عام ١٩٥٤ ،مقالة لثيسكر في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية - أذ اشتهر ثيسكر كسائح في البلاد العربية وكان عنوان تلك المقالة - سكان الاهوار في جنوب العراق - وقد وصف فيها حياة قوم بدائيين كان يقضي بينهم عدة اشهر من كل سنة منذ عام ١٩٥٠ ، ويلوح لي انهم يعيشون في مساحات واسعة ضائعة من المياه ، ولم يزرهم أحد من المكتشفين الحدي ثين ،وهم يعيشون في اكواخ من القصب قائمة على جزر عائمة في المياه. وسارت حياتهم بدائيه معقدة شائكة لعدة قرون. ولكن الاهوار ستجفف في السنوات القادمة وسيذوب سكان الاهوار في غمرة حياة حضارية جديدة ، ربما تكون اكثر راحه ونعومة ، ولكنها بالتأكيد ستكون أقل حرية وانطلاقاً ، وكما يأخذني الأسى على اشياء كثيرة فقد تأسفت على هذه القوى التي لا تفتأ على تحويل مثل هذه الاماكن البدائية الى مناطق حضارية وتخلق من رجال الاهوار هؤلاء أولاد أزقة ومنعطفات. وعندما قرأت هذه الفقرة وجدت ضالتي... وكتبت رسالة الى ثيسكر الذي كان في لندن يقضي الخريف واوائل الشتاء واتفقنا على موعد المقابلة ،وحينما التقيت به اتفقنا على موعد السفر وتم ذلك فعلاً فكانت رائعته (قصبة في مهب الريح) التي ترجمها لنا صادق عبد الصاحب التميمي. وهي تقع في (٢٢٤) صفحة من القطع الكبير ، موزعة بين مقدمة للناشر والمؤلف واحد عشر فصلاً.

وقد تميز الفصل الاول في وصف مدينة بغداد في حقبة الخمسينيات وهي تزدهر بالبنايات الغربية الطراز الحديثة البناء تقوم في كل ارجاء المدينة وحيثما وليت وجهك التقت عيناك بشوارع وطرق حديثة تحت الانشاء، كما تطرق الى ظهور الاهوار واقسامها وسكان الاهوار ثم يبحث في كلمة المعيدي واصلها العربي وعرج على ثورة الزنج في القرن الثالث الهجري.

اما الفصل الثاني فكان الحديث فيه عن وصف للمضيف واداب الاكل وعادة تناول الطعام وشرب القهوة. ثم انشغل بوصف وسائط النقل (المشاحيف) وذكر منطقة الهوير في البصرة التي اشتهرت بصناعتها منذ القرن العشرين.

وفي الفصل الثالث ذكر المؤلف انواع الطيور المائية التي تعيش في الاهوار كما ذكر انواع الخبز كالطابك والسياح والرصاع واشار الى الامراض المنتشرة في المنطقة وختان الاطفال وكلاب القرية وطرق صيد الاسماك والغناء والرقص الشعبي هناك.

وفي الفصل الرابع يتطرق كافن ماكسويل الى انواع المساكن وعمل الجباشات وشوي السمك والطيور وتربية الجاموس بين عرب الاهوار تحظى باهتمام كبير لفوائده الكثيرة. اما صيد الخنازير فهي هواية جميلة للباحث وانها في الوقت ذاته فيها فائدة للفلاحين من عرب الاهوار لان الخنازير تعبث بالمحاصيل الزراعية وتدمرها. وتميز الفصل الخامس بوصف التركيب الاجتماعي في الاهوار المتكون من الشيخ وافراد حاشية من - المواميير والسراكيل والملالي والعبيد والحراس - وكيفية معيشتهم في مقاطعاتهم وهم محاطون بالمفاتيل (القلاع)، ثم يشير الى الفلاحين الذين يعيشون في ضائقة مالية حادة ويقارن بين الشيوخ القساة والكرماء منهم، وأختص الفصل السادس من قصبة في مهب الريح بثورة الفلاحين في ام كعيده وتناول الكرم الاوربي والعربي. وتأخذ المرأة جزءا من اهتمامه في بيان دورها في المجتمع الريفي والاعمال الشاقة التي تمارسها هناك.

وجاء الفصل السابع متنوعاً حيث اشتمل على صيادي السمك (البربره) ووصف لسوق الطويل (السلام فيما بعد) ثم اشار الى عشيرتي الفريجات والفرطوس وصيد الطيور بالدوشات وهي شباك تغرس في المياه الضحلة وترش بحبوب الشعير المطبوخة (العلف) وعندما تجتمع الطيور يجذبها الصياد من حبل ومن خلف مكان هو اشبه ببرج المراقبة.ثم يتناول الباحث انواع البنادق ويتطرق الى صناعة البواري (الحصر) وحياكتها.

وفي الفصل الثامن ينتقل المؤلف الى الاهوار الشرقية في العمارة ويبحث في اعمال عشيرة الشغانبه ويبين محتويات البيت في الاهوار ويراقب عملية بناء مضيف في تلك المناطق النائية من اهوار العمارة. فيما يستمر بترحاله وتنقله بين قرى البيضة والشرش والكباب وابو مالح وارفيعه ويكتب مشاهداته. كان كل ذلك في الفصل التاسع في حين يذكر الصقور الحمر والطيور اكلة النمل والوز الوحشي ويمر في عشيرة السودان ويتطرق اليحياة شيخها حاتم بن صيهود العجيل كما يذكر قصة تحكي صراعاً بين شيخ وولده يرمز لهما بناصر وسلمان وهي اشبه بقصة حقيقية كان عرب الاهوار يروونها في مجالسهم في تلك المناطق في خمسينيات القرن العشرين. كان ذلك من محتويات الفصل العاشر.

اما الفصل الحادي عشر فقد يرد فيه ذكر الحرز والتعويذة والخرز والسحر واسماء الاطفال ودورها في دفع الشر عن الوليد واعتقاد سكان الاهوار بختان الملائكة ويشير الى الجن والطناطل والجزر المسكونة ثم يمضي فترة قليلة بين ابناء طائفة الصابئة ويذكر بعضا من طقوسهم اليومية.. ثم يختم هذا الفصل بحوار داخلي بينه وبين نفسه قائلا : (ماالذي جئت من اجله لتراه ياكافن؟؟.. قصبة في مهب الريح)..